

أحاديث رمضان ١٤١٥ - قراءات قرآنية - سورة ص والزمر - الدرس ( ٣٩ - ٤٩ ) : القصة في القرآن الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٢-٢٢

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

### القصة في القرآن الكريم ذات هدف توجيهي :

أيها الأخوة ؛ نقطة متعلقة بالقصة في القرآن الكريم ، القصة في القرآن الكريم ليست هدفاً تسجيلياً ، بل ذات هدف توجيهي .

أحياناً نسجل وقائع ، الهدف تسجيلها ، أحياناً الهدف التعبير ؛ لكن هناك هدفاً أسمى من هذا وذلك هو الهدف التوجيهي ، فإله سبحانه وتعالى ما أورد في القرآن الكريم هذه القصص - وهذه قصص أنبياء كرام - إلا لهدف توجيهي فيه ، نحن كمؤمنين نقرأ هذا الكتاب الكريم ، ماذا يعيننا من قصة سيدنا داود ومن قصة سيدنا سليمان إلا أن نأخذ منها قاعدة تثير لنا الطريق في حياتنا ؟ فدائماً وأبداً : إذا قرأت القصة في القرآن ، لا ينبغي أن تفهمها فهماً تسجيلياً أو فهماً تعبيرياً ، يجب أن تفهمها فهماً توجيهياً ، هذه النقطة الأولى ؛ أية قصة في القرآن ، ما دامت قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ، فليس الهدف التسجيل ، وليس الهدف هو التعبير ، إنما الهدف هو التوجيه .

في قصتي سيدنا داود وسليمان ؛ سيدنا داود كما تذكر الآيات قال الله له :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

[سورة ص : ٢٦]

سيدنا سليمان أحب حب الخير عن ذكر ربه ، وفي القصتين مجتمعتين ينبغي أن نفهم الحقيقة التالية :

أولاً : في الإنسان جانب عقلي ، وفيه جانب نفسي ، وفيه جانب سلوكي ، فكل من نما فيه جانب على حساب جانب ، فقد غالى بالتعبير القرآني ، أو تصرف بالتعبير المعاصر ؛ مغال أو متصرف ، وكل من حقق التوازن بين هذه الكليات الثلاث فقد تفوق ، فحينما تشغل بصلواتك وعباداتك عن الأعمال الصالحة ، فأنت قد قصرت .

## التوازن الدقيق المستمر بين العبادة والعمل :

بالمناسبة : التطرف سهل دائماً ، أما التوازن فصعب ، الموقف الحاد يمينة أو يسرة، إيجاباً أو سلباً ، سهل على الإنسان ، سهل أن تكون قاسياً جداً ، وسهل أن تكون ليناً جداً ، أما أن يختار الناس الذين معك ، يختارون بين شدتك وبين رحمتك ، فهذه البطولة هنا ، فالإنسان يرحح جانباً يتطرف ، يغذيه على حساب جوانب أخرى ، هذه قضية سهلة ، أما أن يجمع بين العبادة والعمل الصالح . يوجد أشخاص وقتهم كله في العبادة ، هؤلاء أغفلوا مهمة كبيرة جداً في الحياة الدنيا، وهناك أشخاص كل همهم في العمل الصالح على حساب عبادتهم ، فالذي يرحح جانب العبادة على جانب العمل الصالح ، صحيح أنه يشعر بالصفاء ، لكنه في الآخرة ليس من المتفوقين ، لأن حجم الإنسان بحجم عمله ، والذي يرحح العمل الصالح على العبادة ، صحيح له أعمال كثيرة ، لكن الشحنة الروحية ضعفت ، وحينما تضعف الشحنة الروحية ، يشعر بالسأم أحياناً ، والملل ، فمن القصتين يجب أن نستنبط أنه لا بد من التوازن الدقيق المستمر بين العبادة والعمل ، إذاً : العقل غذاؤه العلم ، والقلب غذاؤه الذكر ، والجوارح يجب أن تتضبط بالمنهج الشرعي ، هذا هو التفوق .

## القصص في القرآن أدلة تطبيقية إيجابية تارة وسلبية تارة أخرى :

النقطة الثالثة : هناك أحياناً أدلة على الفكر ، أدلة تطبيقية ، وقد يسأل سائل : لماذا كل هذه القصص في القرآن الكريم التي تبين أخبار الشعوب ؟ ماذا يعينني من عاد ، وثمود ، وتبع ، وقوم شعيب ؟ يعينك أن هذا المنهج أحد أدلته الكبرى أن هؤلاء طبقوه فسعدوا ، وهؤلاء خالفوه فكانوا من الهالكين ، هذا دليل تطبيقي ، إنسان جاء بنظرية ، حينما يطبقها ، والتطبيق يثبت صحتها ، هذا أقوى دليل ، وحينما يترك تطبيقها ، فيدفع الثمن باهظاً ، هذا أكبر دليل . إذاً : كلما قرأنا عن قصص الأنبياء ، يجب أن نقف عند هذه النقطة ؛ أن هذه القصص أدلة تطبيقية إيجابية تارة ، وسلبية تارة أخرى .

## ارتباط رقي الإنسان باجتماع الجانبين الأرضي و السماوي فيه :

هناك نقطة مهمة في سورة الزمر ؛ هل هناك إشارة في هذه السورة إلى عبادة القلب؟ الآن : العين تعبد الله بغض البصر ، واللسان بترك الغيبة ، والنميمة ، والسخرية ، والاستهزاء ، والإفك ، وما إلى ذلك ، اليد لخدمة الخلق ، والبعد عن البطش ، إلى آخره . . ما من جراحة إلا ولها عبادة خاصة ، القلب كيف يعبد الله عز وجل ؟ بالإخلاص ، في كلمتين جمعت عبادة الجوارح ، وعبادة القلب . الآية الأولى :

## ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾

[سورة الزمر: ٢]

اعبد الله ، أي أنت الزم أمر الله ونهيه :

### ﴿لَهُ الدِّينَ﴾

[سورة الزمر: ٢]

هناك نقطة ثالثة في قصة سيدنا داود ، نسيت أن أذكرها لكم ؛ هناك غريزة في الإنسان ، وله عقل ، أما الملائكة فمرتاحون من الجهاد ، عقل مطلق ، والحيوانات شهوة فقط ، فالحيوان ليس مكلفاً ، لا يوجد عنده قيم ومبادئ يطبقها ، وليس هناك نزاع بينه وبين نفسه ، والملك لا يوجد عنده شهوات تتنازع تجاه الله عز وجل ، فالملك مرتاح من الجهاد ، والحيوان مرتاح من السمو ، لكن الإنسان ركبت فيه نزعة أرضية ، وهذه الغرائز ، ونفخة من روح الله عز وجل ، إذاً هناك جانب أرضي ، وجانب روحي سماوي ، فمن اجتماع الجانبين يرقى ، لأنه هو دائماً في صراع ، لذلك : أعرض عن الهوى .

### تحرك الإنسان وفق باعئين ؛ العقل أو الهوى :

أخواننا الكرام ؛ الإنسان دائماً يتحرك وفق باعئين ؛ باعث العقل الذي يقودك إلى الله حكماً ، وباعث الهوى الذي يقود الإنسان إلى المعصية والفسق والفجور ، ممكن أن تمتحن نفسك بكل لحظة ، هذه الحركة باعثها الغريزة أم العقل ؟ العقل يأمرك بطاعة الله ، يأمرك بالبحث عن الحياة الأبدية ، والشهوة تأمرك أن ترويه عاجلاً لا أجلاً ، فأنت في صراع ، لذلك : المؤمن ملك نفسه ولم تملكه نفسه ، وانقاد له هواه ولم ينقد لهواه ، أي مسيطر ، حتى فكره فكر المؤمن يقوده ، فكر الكافر يبرر له ؛ بين أن يقود ، وبين أن يبرر ، إذاً : لا تعجب من وجود نوازع أرضية في الإنسان ، لولا هذه النوازع الأرضية لما كان هناك معنى لاستقامتك ، أو لرفيقك عند الله عز وجل .

### ارتباط الرجاء بالإنيابة و المغفرة بالتوبة :

الحقيقة في سورة الزمر - كما يقول السلف الصالح- أرجى آية في القرآن على الإطلاق :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

[سورة الزمر: ٥٣]

الله عز وجل ما ذكر المعصية ، بل ذكر الإسراف ، المسرف في المعصية باب التوبة مفتوح ، لكن إن لم ينب الإنسان إلى الله عز وجل :

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ \* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

[سورة الزمر: ٥٤-٥٥]

لو تتبعت آيات الرجاء في القرآن الكريم ، لوجدت أن كل آية رجاء وراءها آية عقاب:

﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

[سورة الحجر: ٤٩-٥٠]

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾

[سورة الزمر: ٥٤]

فكل رجاء معه ردع وعقاب ، فالرجاء إذا نُظر إليه من زاوية واحدة ، هذا غلط ، الرجاء مرتبط بالإنابة ، المغفرة مرتبطة بالتوبة ، لكن الإنسان عندما يحار يعم الفساد ، الباطل مسيطر ، قوى الشر قوية جداً ، قوى الخير ضعيفة ، لا يقوى على إصلاح المجتمع ، هل هناك آية تريحه ؟ إصلاح المجتمع أولى ، أن تكون إيجابياً أولى ، أن تسهم بنشر الحق أولى ، لكن أحياناً هناك حالات خاصة بآخر الزمان ، بظروف صعبة جداً ، تشعر أنك لا تملك شيئاً ، لا تملك أولادك ، والفساد عمّ ، وخمسون حاجز فساد ، قبل أن يصل أحدهم إليك ، في مثل هذا الظرف الصعب هل هناك آية تريح الإنسان ؟

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

[سورة الزمر: ٧]

هذه الإسراء .

أما في الزمر :

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الزمر: ٦٦]

تنتهي مهمتك في عبادة الله ، وحينما تعبد سوف تأتيك الخيرات من كل جانب ، إذاً : اشكر ، أنت اسع في هداية الخلق ، لكن لا تكلف نفسك فوق طاقتها ، لا تحمل هموم البشر .

## لزوم طاعة الله عز وجل :

أحياناً يكون هناك حكمة إلهية لا تعرفها أنت ، فأنا عليّ أن أعبد الله ، لذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

[سورة المائدة: ١٠٥]

من معاني هذه الآية أن الزموا أنفسكم ، طهروا أنفسكم ، فأنت كعبد ، جعلك الله مستضعفاً ، ماذا تفعل بنفسك ؟ حكمة بالغة ما بعدها حكمة .

أحياناً : تكون مستضعفاً ، لا تقوى على تحريك ساكن ، في مثل هذه الحالة الزم طاعة الله عز وجل ، وعلى الله الباقي ، وأدق عبارة ، أدق آية قرآنية بهذا المعنى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[سورة الرعد: ١١]

غير ليغير ، الكبيرة التي حولك لا تملكها ، لكن الله يملكها ، فإذا غيرت ما هو في حوزتك ، وما هو بإمكانك ، تولى الله عنك ما ليس بإمكانك ، هذا معنى :

﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الزمر: ٦٦]

**التوكل على الله لأن الأمر كله بيده :**

شيء آخر : آية من آيات التوحيد التي إذا قرأتها آلاف المرات لا تشبع منها ، تحل كل مشاكلنا ، من آيات التوحيد إذا كان الإنسان مستضعفاً وسط قوى شريرة مخيفة ماذا يفعل ؟ هناك آية واحدة توحيدية :

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

[سورة الزمر: ٦٢]

انتهى الأمر ، مهما رأيت جهة قوية ، مخيفة ، يجب أن تؤمن أنها بيد الله ، وأن الله لم يطلقها إلا بحكمة بالغة .

والدليل الآخر : ما أمرك أن تعبد إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليك :

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾

[سورة هود: ١٢٣]

لماذا سمى الله القرآن شفاء للصدر ؟ يكون هناك شيء مقلق ، مخيف ، تكون في حيرة ، تكون في تساؤل ، تقرأ القرآن تحل المشكلة .

أي الله عز وجل أعظم وأكرم من أن يخلق جهة قوية ، وبفلتها على الخلق ، يا رب كيف أعبدك و هذا مصيري بيده ؟ يقول لك : لا ، أمره بيدي ، علاقتك معي فقط ، عليك أن تطيعني وأنا أحملك منه :

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾

[سورة هود: ١٢٣]

**التوحيد علاج كل الأمراض التي يعاني منها الإنسان :**

أخواننا الكرام ؛ في العالم كله لا أحد ينكر - إلا الشواذ - أن لهذا الكون إلهاً خالقاً، أما المشكلة فليست في الخلق ، في التسيير :

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾

[سورة الزخرف: ٨٤]

هنا المشكلة ، يتفاوت الناس بالإيمان ، لا بإيمانهم بأن لهذا الكون خالقاً ، لا يتفاوتون بإيمانهم بأن هذا الخالق بيده كل شيء ، مهما كان الشيء دقيقاً :

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

[سورة الأنعام: ٥٩]

الصندوق الذي فيه سيدنا موسى ، من سيّره إلى شاطئ قصر فرعون ؟ من ألهم امرأة فرعون أن تأتي في الوقت المناسب ؟ من ألقى حبه في قلبها ؟ من الذي منعه أن يرضع من أية مرضعة ؟

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾

[سورة القصص: ١٢]

كيف نجحت أمه في إرسال أخته تتقصى الخبر ؟ وكيف طلب فرعون من أمه أن ترضعه وهو لا يعلم ؟

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

[سورة القصص: ١٣]

معنى هذا أن فرعون ، وأدنى من فرعون ، والأمهات ، والإرضاع ، وحركة الصناديق بالمياه ، كل ذلك بيد الله عز وجل ، هذه القصص مؤداها أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، لذلك نحن الآن علاجنا التوحيد ، بالتوحيد ترتاح أعصابنا . اسمعوا الآية :

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾

[سورة الشعراء: ٢١٣]

إذا عذاب الإنسان يأتيه من عدم التوحيد ، وعدم التوحيد يرتبط بالشدة النفسية ، وهناك قائمة أمراض طويلة عريضة كلها بسبب الشدة النفسية ، والشدة أساسها الشرك ، أن تخاف من جهة ، هي في الحقيقة بيد الله عز وجل .

## الجنة محض فضل وجهم محض عدل :

آخر آية في سورة الزمر :

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

الْعَامِلِينَ﴾

[سورة الزمر: ٧٤]

بعضهم قال في هذه الآية : إن الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، بسبب أنك في الأرض عرفت الله ، وعملت الأعمال الصالحة .

أحياناً الإنسان يتمتع بمكانة اجتماعية عالية جداً ، بسبب شهادة عالية نالها ، كل هذه المكانة وهذا الخير بسبب سنوات الدراسة العصبية في الجامعة ؛ السهر الطويل ، وتأدية الامتحانات ، هذه سبب هذه المكانة ، لذلك الجنة سببها ، لا أقول ثمنها بل سببها ، الثمن هو فضل الله عز وجل ، مثل بيت ثمنه أربعون مليوناً ، أنت دفعت ثمن المفتاح فقط مئة ليرة ، هو ثمنه يقدر بأربعين مليوناً ،

أنت ما دفعت ثمن البيت ، دفعت ثمن السبب ، المفتاح فقط ، فكل أعمالك الصالحة في الدنيا هي سبب وليست ثمناً .  
الجنة محض فضل ، وجهنم محض عدل .

**والحمد لله رب العالمين**